تيسير النحو واللسانيات الحديثة

الكلمات المفتاحية

(اللسانيات، علم اللغة، دي سوسير، المدارس اللسانية)

د. فائز عبد الملك محسن

الجامعة المستنصرية- كلية التربية- قسم اللغة العربية

الملخص:

(تُعَدُّ الدراسات اللسانية الحديثة مثار جدل ونقاش بين مختلف المدارس اللغوية الحديثة وخصوصًا في عالمنا العربي لما أحدثته تلك الدراسات من نقلات نوعية في مسيرة اللغات العالمية ومنها اللغة العربية. وتبقى المقارنة بين العلوم العربية واللسانيات قائمة ما بقيت اللغات واستمر تطورها، ولابد لنا في هذا البحث من بيان مدى قدرات اللغة العربية واكتفائها بما ورثته من علوم متنوعة لها القدرة على أداء مهمة التواصل بين أبنائها وبقائها من ضمن اللغات العالمية الحية، كما أن اللسانيات قد أسهمت على نحو واضح في فتح آفاق واسعة للبحث والدراسة والتنقيب لمعرفة ماهية اللغات والعلاقة بينها ومواضع التشابه والاختلاف بين تلك اللغات وامكانية التواصل والإفادة بينها، وقد عرفت اللغة العربية بجزالتها وبلاغتها وذلك لما تمتع به من علوم تشكل في مجموعها نسيجًا متكاملاً ينسق بين الشكل والجوهر وبين التركيب وعلاقته بالمعنى)

Verbal thought among Western and Arab linguists facilitators

Preparation

Dr.. FAAZ Abdul MALIK Mohsen

Christian university

College of Education

Arabic language division

Abstract

Modern linguistic studies is a matter of debate and discussion among) various modern language schools, especially in the Arab world to what caused these studies of qualitative shifts in the march of global languages, including Arabic. The remaining comparison between the Arab Science and Linguistics a list of what remained of languages and continues to evolve, and we must in this research of the extent of the Arabic language capabilities and sufficiency including inherited from a variety of science have the ability to perform the task of communication between her sons and survival among world languages, and linguistics has significantly contributed to the open broad prospects for research and study and exploration to see what languages and the relationship between them and placements similarities and differences between those languages and the possibility of communicating and benefit them, was known Arabic language Bdzaltha and eloquent of what it enjoyed Science together constitute the integrated texture coordinates …from (between form and substance and structure and its relationship between

المقدمة:

إنَّ للمُطّلِعِ على حقيقة اللسانيات الغربية (علم اللغة) وماهيتها وميدان دراستها والمحاور والمناهج التي تستعملها في دراسة لغة ما أو اللغات بصورة عامة وشاملة، أن يلاحظ مدى سطحيتها وبعدها عن جوهر اللغة العربية وعلومها؛ والسبب في ذلك يعود إلى أن علماء اللسانيات من الغربيين قد وضعوا تلك المناهج والدراسات لتحليل لغاتهم والوقوف على مواطن الضعف ومعالجتها وتداركها ومواطن القوة وتدعيمها. وقد كانوا محقين في نظرتهم هذه إلى لغاتهم، لما آلت إليه تلك اللغات من انفصال عن الماضي مرة واندثار سحيق أخرى، فهم إزاء مهمة النهوض بتلك اللغات(خصوصاً في أميركا واوربا) ومحاولة الخروج بقوانين جديدة وأنظمة (تركيبية وصوتية ومورفولوجية ودلالية) تستطيع مواكبة الواقع الاجتماعي لتلك الشعوب.

وظلت تجارب علماء اللسانيات الغربيين ومحاولاتهم مستمرة في التحليل والبحث والتنقيب عن الحلول لما تواجهه لغاتهم من صعوبات إذ وجدوا أن تلك اللغات تبتعد كثيراً عن روح المعنى وعن الدلالة التي هي غاية الكلام واللغة بصورة عامة، كما أنها تهتم بالتركيب الشكلي والإطار السطحي للغاتهم. وبقيت تلك المحاولات بين الرفض والقبول والنقد والتطوير عبر أجيال ومدارس مختلفة من اللسانيين الغربيين على أمل الوصول إلى منطقة اتفاق بين تلك المناهج والمدارس والخروج بما ينفع لغتهم وقواعدها.

إلا أن المشكلة ليست غي علماء المدارس اللسانية الغربية (اللسانيين) فلهم مسوغاتهم وأسبابهم المنطقية والواقعية الناتجة من حاجاتهم اللغوية وطبيعة مجتمعاتهم وما تؤديه اللغة من دور في التواصل فيما بينهم والتعبير عن حاجاتهم الإنسانية وردود أفعالهم والاستجابة للمثير عن طريق اللغة الذي يمثل الصوت مادتها الاساسية في عملية الكلام بين أفراد البيئة الواحدة.

إنَّ المشكلة التي نواجهها في العالم العربي هي الدعوات التي يصدرها الكثير من باحثي العربية ودارسيها من المحدثين، وتتمثل تلك الدعوات بتبني المناهج اللسانية وتطبيقها على علوم اللغة العربية بصوتها، وصرفها، ونحوها، ودلالتها، ومعجمها. ويعلم المختص باللغة العربية ما لهذه الدعوات من خطورة في جعل المعلمين في مدارسنا وجامعاتنا يقعون في لبس

وحيرة من أمرهم بين الدراسات اللغوية القديمة(الكلاسيكية) وبين علم اللغة الحديث(اللسانيات) فهذه الدعوات تشبه إلى حد ما إجبار اللغة العربية على لبس ثوب غريب لا يليق بشكلها ولا بجوهرها لا من ناحية النظرية اللسانية ولا من ناحية التطبيق.

يقول (دي سوسير ١٩١٣م) رائد الدرس اللساني الغربي في أوربا في حده للغة وماهيتها: (اللغة نتاج اجتماعي لملكة اللسان ومجموعة من التقاليد الضرورية التي تبناها مجتمع ما ليساعد أفراده على ممارسة هذه الملكة)[١]، ويقول ابن جني(٣٩٢هـــــــ) في باب القول على اللغة: (أما حدها فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم)[٢]، وعند المقارنة بين القولين(ولست هنا بصدد المقارنة بعينها ولكن لتوضيح ما سأذكره في طيات هذا البحث) نجد أن القول السابق لابن جني جامع مانع لا حشو فيه يمتاز بدقة عالية، إذ إنه يحدد أنَّ مادة اللغة هي الأصوات وهذا اقرار ضمني بأنها أساس اللغة ومادة الكلام، وهذا ما توصل إليه اللسانيون حديثًا بعد دراسات مستفيضة وتجارب مضنية بما أسموه (الفونيم، والمورفيم) وما كتبوا وألفوا لتلك المصطلحات، وفي الجزء الثاني من تعريف ابن جني للغة نجد أنه يفرق خير تفريق بين أجناس اللغات واختلاف الأقوام وأن اللغة التي نتكلم بها ونجعلها مادة للتواصل فيما بيننا ليست بالضرورة هي اللغة نفسها التي يتكلم بها غيرنا من الأقوام فلكل قوم ولكل جماعة أصوات وتراكيب وأنظمة مختصة بهم تواضعوا عليها واتفقوا بالفطرة على استخدامها طريقة للتواصل دون اللغات الأخرى، وهل أبلغ من ذلك الفكر وهذا الاطلاع على تجارب الأمم ولغاتهم في ذلك الزمن الذي لم يكن فيه التواصل بين الشعوب والمجتمعات هيناً كما هو حال علماء اللسانيات حين ألفوا كتبهم ووضعوا مصطلحاتهم.

إنَّ الهدف من هذا البحث هو تعرف محاولات الميسرين العرب من المحدثين ومقارنة محاولاتهم باللسانيين الغربيين، وهل أن تلك المحاولات يمكن وضعها في جانب محاولات علماء (اللسانيات) بمختلف مناهجهم ومدارسهم الفكرية واللغوية.

أولاً: حقيقة اللسانيات الغربية.

لا حاجة بنا إلى البحث والتنقيب عن تاريخ الدرس اللساني الغربي وبداياته ومن هم رواده وماهي منهاجه ومدارسه، فالكتب المؤلفة في هذا المجال والبحوث تغني القارئ والباحث عن تاريخ اللسانيات الغربية وبدايتها.

نريد في هذا الموضع بيان حقيقة الدرس اللساني (الغربي) وماهيته والنقطة المحورية التي يدور حولها علماء اللغة من الغربيين، في البدء نحن نعلم أن اللسانيات بمختلف مناهجها ومدارسها وروادها إنما وجدت لغرض دراسة اللغات الأجنبية (لم تكن اللغة العربية من ضمنها) مثل اللغات الاغريقية واللاتينية والانكليزية والسنسكريتية وغيرها من اللغات المنتشرة في أمريكا واوربا عمومًا، ولقد كان للفرق الشاسع بين تلك اللغات بوصفها لغات مقدسة تُحافظ على الكتب السماوية المقدسة وتُعنَى بحفظ الأدب الرفيع واللغة البلاغية العالية لها، وبين الواقع الذي عاشته تلك المجتمعات المتنوعة وشعورها بالانفصال شبه التام بين ما هو مستعمل في كلامهم اليومي من (أصوات، وتراكيب) وأنظمة لغوية تكاد تكون منسلخة عن اللغات المندثرة التي تحتاج إلى مترجمين لمعرفة دلالاتها للشعوب ذاتها صاحبة هذه اللغة أو تلك.

ونتيجة طبيعية للثورة الصناعية وما لها من فضل في التواصل بين مختلف الأمم وتعرف طبيعتها الاجتماعية والنفسية واللغوية بوصفها أداة للتواصل بين الناس، ظهر دراسون متخصصون باللغة وعلم الاجتماع أحسوا بوجود هوة واسعة ومآخذ متعددة في لغاتهم المنطوقة في المقام الأول ومن ثم المكتوبة، لذا كان حريًا بهم البحث والدراسة لإيجاد قواعد وأنظمة تركيبية يمكن الاعتماد عليها لجعلها أساسًا يسير عليه الناطقون بتك اللغات الأجنبية.

وكما هو واضح عند الجميع أن رائد الدرس اللساني (الغربي) هو السويسري (دي سوسير) على الرغم من أن الكثيرين قد سبقوه إلى دراسة اللغة وأصلها وتاريخها والمقارنة بين اللغات للوصول إلى خصائص مشتركة بين اللغات المختلفة ومزج علوم أخرى مع علم اللغة منها علم الاجتماع وعلم النفس وعلم الآثار وعلم التاريخ وغيرها من العلوم، على أن اللغة مادة

حية لا يمكنها الانفصال عن بقية العلوم الانسانية الأخرى، ومن هؤلاء العلماء: **(ويليام جونز ١٧٩٤م: أوجست ولف ١٧٧٧: فرانز بوبب ١٨١٦: جاكوب جريم ١٨٣٦: شليشر ١٨٦١:ونتي ١٨٥٧م)** [٣]. إلا أن هؤلاء جميعًا لم يضعوا مفاهيم واضحة ومصطلحات مقننة كما فعل(دي سوسير) في كتابه (علم اللغة العام) الذي وضع فيه الأسس والمبادئ التي انطلق منها الدرس اللساني وتوسع في أرجاء العالم.

ولو قُدِّرَ لأي شخص متخصص في اللغة وعلومها أن يطلع على جوهر المادة اللسانية الغربية وحدودها وما تعنيه من دراستها ومناهجها، لوجد على نحو لا يقبل الشك بُعدها شكلاً ومضموناً عن قواعد اللغة العربية وأنظمتها وما تصبو إليه من دقة متناهية في تحديد المعنى الدلالي من الجمل والتراكيب التي يصوغها العربي الفصيح، ويحتج بعض ممن يدعو لدراسة اللغة العربية على منوال اللسانيات الغربية وصبغها بتك الصبغة الحديثة والتخلص من المنظور القديم للنحو العربي بشكل خاص، بأن اللسانيات الغربية جاءت بما تفتقر إليه اللغة العربية من مفاهيم متعددة مثل: (التداولية، والتفكيكية، والتجريبية، والبنيوية، والتحويلية، والتوزيعية، والفونيم، والفونولوجيا، والمورفيم ... وغيرها) ولو قابلنا تلك المصطلحات والمفاهيم الغربية لوجدناها عند علماء العربية في مستهل الدرس النحوي في البصرة والكوفة. ورب سائل يسأل هنا، لو كانت تلك المصطلحات والمفاهيم موجودة في التراث اللغوي العربي لماذا لم يتم طرحها ودراستها بالنحو الذي طرحه علماء اللسانيات الغربيون؟ يكون الجواب عن هذا السؤال بمستويين:

الأول: ما يرتبط بعلماء العربية وما حوته مؤلفاتهم وكتبهم، فكل باحث ومطلع على التراث اللغوي القديم يلاحظ من دون ريبة ولا يساوره شك في أن اللغة العربية لغة متكاملة وبليغة متماسكة النسيج ومحبوكة التركيب غايتها الدلالة وآلتها النحو والإعراب وصنيعتها الصرف والأصوات، لنأخذ قول عبد القاهر الجرجاني(٤٧١هـــــــــــ) في كلامه عن تحقيق القول في البلاغة والفصاحة: (في تحقيق القول على البلاغة والفصاحة، والبيان والبراعة، وكلِّ ما شاكلَ ذلك، مما يُعبَّر به عن فضل بعض القائلين على بعض، من حيث نَطقوا وتكلموا، وأَخبروا السامعين عن الأغراض والمقاصد، وراموا أن يُعْلِمُوهم ما في نفوسهم، ويَكشفوا لهم

عن ضمائر قلوبهم ومن المعلوم أن لا معنى لهذه العبارات وسائر ما يَجْري مجراها مما يُفرد فيه اللفظُ بالنعت والصفة وينسبُ فيه الفضلُ والمزيةُ إليه دونَ المعنى: غيرُ وصْفِ الكلام بِحُسْنِ الدلالة، وتمامِها فيما له كانت دلالة، ثم تَبرُّجهَا في صورةٍ هي أبهى وأزْيَنُ، وآنَقُ وأَعْجَبُ، وأَحقُّ بأن تستوليَ على هوى النفس، وتنالَ الحظَّ الأوفرَ من مَيْل القلوب، وأولى بأن تُطْلِقَ لسانَ الحامد، وتُطِيلَ رغْمَ الحاسد. ولا جهة لاستعمال هذه الخصال: غيرُ أنْ يُؤتى المعنى من الجهة التي هي أَصحُّ لتأديته، ويُخْتارَ له اللفظُ الذي هو أَخصُّ به، وأَكْشَفُ عنه وأَتمُّ له، وأحرى بأن يَكسبه نُبلاً، ويُظهِرَ فيه مزية)[٤]. أليس حريًا بقارئ هذا النص أن يقف وقفة اعجاب؟ فلو فككنا النص السابق وحللناه تحليلاً لسانيًا حديثًا على طريقة اللسانيات الغربية، لوجدنا أن هذا النص يختزل كل معاني البلاغة والدلالة والمعنى وظلال المعنى وأدوات تلك المعاني من (أصوات، ومفردات، وتراكيب) تنساق بشكل مقصود ومنظم لغرض واحد وجدت لأجله اللغة وهو(التواصل)المنظم الذي وضع له من القوانين أدقها ومن التراكيب أنسبها، لأنَّ العلاقة بين اللفظ والمعنى ليست جامدة بل هي علاقة الروح بالجسد، وليس التواصل النطقي المبني على إصدار أصوات بعينها كما تفعل الحيوانات في التواصل بينها. ولنتتبع المفردات التي أوردها الجرجاني في نصه هذا: **(القول والبلاغة والفصاحة، والبيان والبراعة ونَطقوا وتكلموا، وأَخبروا السامعين عن الأغراض والمقاصد ويُعْلِمُوهم ما في نفوسهم، ويَكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم ومن اللفظ بالنعت والصفة، والمعنى ووصْفِ الكلام بِحُسْنِ الدلالة، وتَبرُّجها في صورةٍ هي أبهى وأزْيَنُ، وآنَقُ وأَعْجَبُ، وأَحقُّ بأن تستوليَ على هوى النفس، وتنالَ الحظَّ الأوفرَ من مَيْل القلوب)**. نجد أن هذا النص مشحون بجملة من المفاهيم والمصطلحات والعلوم التي تحتاج إلى كتب ومؤلفات لبيان جواهرها وكيفية استعمالها، فإن كانت اللغة اعتباطية الوجود فهي ليست اعتباطية النطق والاستعمال إنما يُصاغ ذلك كما يفعل بالمعدن الثمين.

فما هو النقص الذي يعتري لغتنا العربية كي نحتاج إلى اللسانيات وعلومها ومصطلحاتها العويصة ولغتها الجوفاء التي لا تعبر عن مقاصد العربي حين يتكلم؟

إنَّ اللسانيات الغربية إنما وجدت لغرض واحد، وهو دراسة وبحث وتنظيم اللغات الأجنبية التي تتكلم بها الشعوب في أوربا وأمريكا، وقد انبرى علماء كثيرون من المتكلمين بتلك اللغات لوضع نظريات ومناهج مختلفة لتحقيق هدفهم المنشود، كما نجد أنه لو دققنا في تفصيلات الدرس اللساني الغربي لوجدنا فيه مشكلات حقيقية تعارض جوهر اللغة العربية، ومن هذه المشكلات مسألة (المصطلحات) التي تستعملها اللسانيات الغربية، إذ نلاحظ بعدها عن حقيقة اللغة العربية كما أنها لا تعبر بوضوح عما يدور في ذهن المتكلم العربي، ومما يلاحظ أيضًا وجود مرادفات لهذه المصطلحات (الغربية اللسانية) في الدرس اللغوي العربي تغنينا وتسد حاجة الباحث والمتعلم عن الذهاب إلى تلك المصطلحات ولبس ثوب غير الثوب اللغوي الأصيل، فعلى سبيل التمثيل نجد أن مصطلحات: (البنيوية، والوصفية والتجريبية، والتوزيعية، والتحويلية، والفونيم، والمورفيم، والالفون، والصوتيم واللفاظم، والفونولوجيا) لها ما يقابلها ويَفْي بالغرض في لغتنا العربية، فما فعله الخليل بن أحمد الفراهيدي(١٧٥هـــــــــ) في تحليل الجهاز النطقي للإنسان والوقوف على مخارج الحروف وتقسيمها بحسب الجزء الخارجة منه وكذلك تقسيم الجهاز الصوتي بشكل تشريحي متناهي الدقة إذ لم يستطع أحد، بعد كل هذا التطور العلمي والفكري مخالفة (الخليل) في مخارجه بشكل عام، ألا يُعَد فعل الخليل (وتابعه في ذلك ابن جني، وابن سينا) هذا بالعمل التجريبي المبني على التجربة والمباشرة المبنية على حقائق علمية قابلة للقياس ولها حدود معينة؟ وهذا هو ما يُسمى في الدراسات اللسانية بالمنهج (التجريبي) ولو اطلعنا على (الكتاب) لسيبويه(١٨٠هـــ) لوجدنا أن هذا الكتاب يمثل خير دراسة وصفية دقيقة قائمة على دراسة لغة محددة وفي مدة زمنية بعينها ضمن حدود جغرافية لم يتجاوزها المؤلف في كتابه. وهذا هو ما سُمي بعد عدة قرون (بالمنهج الوصفي) وهكذا بقية المصطلحات التي لا نريد سردها أو المقارنة بين ما هو موجود أصلاً في الدرس اللغوي العربي القديم وما هو مستحدث في اللسانيات الغربية. ثم إنَّ العقبة الأخرى التي يمكن أن يلاحظها الباحث العربي في اللسانيات الغربية عمومًا هو لغتها العويصة الجوفاء الخالية من الروح ومن الدلالة المباشرة فهذه اللغة قد تحتاج إلى مترجم في بعض الأحيان، يقول أحمد المتوكل في معرض شرحه وتحليله لجملة "خالدًا أكرمت" : (كيف يمكن تبرير وجود علامة تطابق في التراكيب التي يحتل فيها المكون المحور الصدر حين لاوجود لأي

تطابق حين يكون المكون المتصدر بؤرة؟ لماذا لا نجد في البنيات التي من قبيل(٣٩ أ ب) تطابقًا بين الفعل ومفعوله على غرار ما نجده في التراكيب التي من قبيل (١٦ ب) و(١٧ ب) بما أن الموقع المحتل في الحالتين موقع واحد...)[٥].

ويقول سيبويه (١٨٠هـــــ) قبل أكثر من ثلاثة عشر قرن في باب اللفظ على المعاني: (**اعلم أن من كلامهم اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين، واختلاف اللفظين والمعنى واحد، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين.... فاختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين هو نحو: ذهب وانطلق. واتفاق اللفظين والمعنى مختلف قولك: وجدت عليه من المَوجِدة، ووجَدت إذا أردت وجِدان الضالة**)[٦]. وللقارئ النبه ومن خَبِرَ البلاغة والفصاحة أن يقارن بين نصيين يعالجان مسألة مختلفة وموضوعات متعددة في النحو العربي، الأولى على طريقة اللسانيين والثانية على طريقة القدامى من النحويين وعلماء اللغة العربية. فالفرق واضح والتوهم بيّن في فهم وادراك كلا النصيين المذكورين.

والخلاصة التي أردنا توضيحها والخروج بها من كل ما تقدم ذكره ما يأتي:

١- علم اللغة أو اللسانيات التي جاءت بها المدارس الغربية، وجدت للبحث والتنقيب عن لغات أجنبية محددة ولم توضع لتطبيقها على اللغة العربية.
٢- المناهج والمدارس والمصطلحات اللسانية الحديثة لا تناسب جوهر اللغة العربية وعلومها.
٣- اللغة العربية تتمتع باكتفاء ذاتي في مناهجها وأنظمتها المعجمية، والصوتية، والصرفية، والنحوية، والدلالية، والبلاغية، وهذا ما يدعمه الدليل والكتب والمؤلفات التي جاءنا بها التراث اللغوي الزاخر، وليست مجرد ميول عاطفية وأهواء لا تستند إلى دليل علمي تجريبي وافٍ.

ثانيًا: جهود المُيَسرين العرب.

لاحظ اللغويون العرب منذ نشأة النحو في بواكيره الأولى وجود صعوبة في تناوله عند بعض المتعلمين من عامة الناس، كما أن توسع علوم العربية وتفرغها بين نحو، وصرف، وصوت، ومعجم، وبلاغة ، وعروض، ودلالة.. وغيرها من العلوم التي لها علاقة بالدرس اللغوي عند العرب، كان له الأثر الواضح في التفكير بطريقة جديدة تُعين على الخروج بأنظمة وقوانين ميسرة ومفهومة ومبسطة تجمع القواعد الأساسية والرئيسة لجوهر التركيب والجملة العربية، كما أن تناول مفهوم المعنى(الدلالة) ودخوله على الدرس النحوي أصبح ضرورة لا يمكن التخلي عنها بشكل من الأشكال لما تمثله من عمود يستند إليه التركيب بمختلف جزئياته.

وقد سجلت أولى محاولات التيسير عند القدامى من النحويين بمحاولة خلف الأحمر(١٨٠هـــ) في الكتاب المنسوب إليه(مقدمة في النحو) التي حاول فيها تخليص الدرس النحوي من كل ما به من التعليل والتطويل ومحاولة جمع القواعد الأساسية للنحو العربي، وقد تابعه في تجربته هذه الكثير من العلماء القدامى. [٧]

ويبدو أن تلك المحاولات التيسيرية الأولى التي امتدت لعدة قرون (من خلف الأحمر"١٨٠هـ"، حتى ابن هشام الأنصاري"٧٦١" في كتابه "مغني البيب عن كتب الأعاريب) وما بينهما من عشرات الكتب والمؤلفات والمختصرات، قد كانت بواكير لنشأة درس **(عربي لساني)** في المنهج وفي الأفكار المطروحة والقواعد التطبيقية والتنظيرية، ففي تلك المؤلفات نجد النفس اللساني واضحًا لا يقبل الشك وذلك من خلال محاولة التركيز على دراسة اللغة العربية بوصفها وحدة واحدة وجسدًا متكاملًا لا يمكن لأي عضو أن ينفصل عنها، فلا درس نحوي من دون معنى ولا صرف من دون أصوات ووجوب التناسق والحبكة في التركيب(الجملة) من دون اهمال علم من علوم العربية، وقد تصدر تلك الدراسات عبد القاهر الجرجاني(٤٧١هـــ) في كتابيه (أسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز) فكان بحق منهجًا لسانيًا علميًا دقيقًا ينشد المعنى بوصفه يؤدي وظيفة إنسانية كبرى في التواصل بين الشعوب والأمم، ولم ينظر إلى اللغة على أنها علاقة بين" مؤثر ومستجيب" كما يحصل عند الحيوانات حين

تُطلق أصواتها للتواصل فيما بينها للتعبير عن حاجاتها الغرائزية والفطرية، واستمرت هذه السلسلة التي نستطيع تسميتها بـــــــــــــ **(طريق علم اللغة العربي الأول)** عبر الأجيال وتناقلته مختلف المدارس اللغوية العربية حتى وصلنا إلى العصر الحديث لحين ظهور محاولات جادة تستحق الوقوف عندها لما فيها من بحث علمي واضح الخطوات في جمع علوم اللغة العربية في نسيج متجانس الشكل ولا ينفصل عن المعنى البتة. وتعد محاولات رفاعة رافع الطهطاوي(١٨٧٣م) من أولى المحاولات في تيسير الدرس النحوي وتقديمه بصورة مغايرة لما هو عليه في كتب التراث إذ (قام بمحاولات عملية تُعد الأولى من نوعها إذ قدم للمباحث الصرفية والنحوية أساليب معالجة جديدة تجمع بين الأصالة العميقة والتطلع الجديد للإصلاح في ثياب مشفوعة بجداول مبسطة متنوعة تنبئ عن حُسن استفادة).[٨] وقد تابعه في ذلك (طه حسين) الذي دعا إلى إعادة النظر في مناهج علوم اللغة العربية بما يناسب الواقع اللغوي، وقد استمرت تلك المسيرة من بعدهم متمثلة بعدد كبير من (العلماء والباحثين) في علوم العربية المختلفة. ويذكر كمال إبراهيم في إحدى مقالاته في حديثه عن أسباب تراجع اللغة العربية الفصيحة وانحسارها في المدارس والجامعات: إنَّ دراسة اللغة العربية اليوم دراسة نظرية في الغالب، بعيدة عن طبيعة الكلام الدائر وطرائق الاستعمال المعروفة والمتداولة حاليًا وأنها أقرب إلى أن تكون يُتدارس بها في بطون الكتب، ويمكن أن تعد تلك الدعوة قريبة من مناهج التداولية التي تنادي بها اللسانيات الغربية. [٩]

ويلاحظ أي مطلع على تلك المحاولات التيسيرية الحديثة التي بدأت ملامحها قبل أكثر من قرن من الزمن أنها بذلك تُعد امتدادًا للمحاولات التراثية التي جاء بها القدامى من اللغويين والنحويين العرب على مر العصور ومختلف المذاهب، إلا أن هناك محاولات تيسيرية حديثة يمكن عَدها نقطة تحول في مسار الدراسات والبحوث لما تشكله تلك النظريات من تطور في الدرس اللغوي عمومًا والنحوي على وجه الخصوص. إذ حاول أصحاب تلك النظريات اللغوية الحديثة أن يقدموا الدرس النحوي بحلة مختلفة عما توارثه الأجيال من كتب ومؤلفات في هذا الجانب.

إنَّ من أهم العلماء المجددين في مجال الدرس اللغوي العربي:

١- إبراهيم مصطفى(إحياء النحو)
٢- أحمد عبد الستار الجواري(نحو التيسير، ونحو الفعل، نحو المعاني، ونحو القرآن)
٣- نعمة رحيم العزاوي(النقد اللغوي بين التحرر والجمود، والنقد اللغوي عند العرب حتى نهاية القرن السابع الهجري، ومن قضايا تعليم اللغة العربية رؤية جديدة، وفي حركة تجديد النحو وتيسيره في العصر الحديث، ومناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة، وفصول في اللغة والنقد)
٤- عباس حسن(النحو الوافي، واللغة بين القديم والحديث)
٥- عبد العليم إبراهيم(النحو الوظيفي)
٦- فاضل السامرائي(معاني النحو، وبلاغة الكلمة في التعبير القرآني، ولمسات بيانية)
٧- مصطفى الغلاييني(جامع الدروس العربية)
٨- تمام حسّان(الخلاصة النحوية، اللغة العربية معناها ومبناها، واجتهادات لغوية، مناهج البحث في اللغة).

إذ يُعد هؤلاء من العلماء الذين خبروا التراث وحاولوا تجديده بقراءة النحو من منظور علم اللغة الحديث، وقد حاولوا واجتهدوا في وصف التراث اللغوي وصفًا دقيقًا خاليًا من الشوائب والعلل محاولين في ذلك الربط بين التركيب والدلالة وترتيب الموضوعات اللغوية وتبويبها بشكل جديد وشرحها ودمجها بما يحقق رؤية لغوية متكاملة من حيث الشكل والمضمون.[١٠]

إنَّ النظر الدقيق والبحث المتفحص في تلك الكتب والمؤلفات ودراستها دراسة واعية كفيل بالحكم عليها وتصنيفها من ضمن الدرس (اللساني) الحديث من دون أن تتأثر أو تنسخ التجربة اللسانية الغربية بمناهجها ومصطلحاتها. وتُعد نظريات (تمام حسّان) في جميع مؤلفاته خير دليل وأكبر برهان على أنَّ للتفكير العربي القُدرة على استحداث مناهج ونظريات جديدة تناسب التطور اللغوي الذي تسير به الشعوب العربية في وقتنا الحاضر، ولو أخذنا كتاب(اللغة

العربية معناها ومبناها) لوجدناه أنموذجًا لوجود نظرية لسانية عربية حديثة مغايرة تمامًا لما جاءت به النظريات والمناهج اللسانية الغربية وما تحمله من مصطلحات ولغة عويصة، فقد أكد تمام حسّان أهمية ربط جميع عناصر التركيب اللغوي (الجملة) وتحليل تلك العناصر من دون فصل بعضها عن بعض للخروج بدلالة واضحة ومفهومة بالنسبة لطرفي الكلام(المتكلم والسامع) لأن الدراسات اللغوية بشكلها العام يجب أن تهتم بالمعنى ويكون هو موضوعها الأول والأخير وكيفية المزواجة بين الشكل والوظيفة.[١١] وذلك على اعتبار أن الأهمية الأولى للغة المنطوقة كونها وسيلة للتواصل بين أبناء المجتمع العربي، كما نجد أن تمام حسّان قد تناول الموضوعات النحوية وأبوابها بطريقة مغايرة لما جاء به القدامى من علماء النحو واللغويين العرب في كتب التراث وذلك عن طريق تصنيف تلك الموضوعات بحسب وظيفتها وما تؤديه من عمل في أثناء وضعها داخل التركيب وليس من الواجب اتباع كل ما جاء به القدامى من تصنيفات وحدود لبيان ماهية التركيب وبيان جزئياته من(صوت، وصرف، ومعجم، ونحو، ودلالة).[١٢]

ويمكن القول إنَّ هذه التجربة تنطلق من منظور لساني وصفي يناسب ما جاء به التراث اللغوي ولا ينفصل عنه فهو يأخذ منه تارة وينتقده أخرى وذلك بما يراه من قرب وبعد عن الاستعمال اللغوي بعيدًا عن النظريات في بطون الكتب، فهو في ذلك يقترب أيضًا من المنهج التجريبي القائم على التجربة والمباشرة العلمية الدقيقة التي تبتعد عن الحدس والفطرة اللغوي، وبذلك يكون قد جمع بين عدة مناهج ونظريات بطريقة ميسرة قابلة للفهم ويمكن تطبيقها في المؤسسات التعليمية العربية في المدارس والجامعات للخروج بمنهج علمي يجمع بين القديم بأصالته والحديث بتطوره والابتعاد عما جاء به اللسانييون الغربيون.

وبالانتقال إلى تجربة (فاضل السامرائي) في كتابه(معاني النحو) يتبين للباحث فيه نظرة لغوية علمية دقيقة تقوم على التحليل والبحث عن الأسباب التي أوجدت هذا التركيب أو ذاك، فالجنبة العقلية واضحة فيه والنظرة المتكاملة إلى اللغة وعدها وحدة واحدة ونسيجًا محبوكًا لا يمكن فصل جزء عن الآخر فهذا يؤدي إلى هشاشة التركيب وعدم الوضوح في المعنى وتهافت الدلالة، يقول الدكتور فاضل السامرائي في مقاصد النحو: (نحن لانفهم اللغة كما ينبغي لأن

أغلب دراساتنا تتعلق بالعلاقات الظاهرة بين الكلمات أما المعنى فهو بعيد عن تناولنا وفهمنا).[١٣]

وبنظرة فاحصة لهذا القول يتبين لنا الفكر العميق والتحليل اللغوي المنطقي الذي يعد اللغة تركيبًا متجانسًا شكله الأنظمة النحوية والصرفية والصوتية والمعجمية وجوهره المعنى والدلالة فهي غاية المتكلم في التواصل والتفاهم. ولو أخذنا أنموذجًا مما حلله فاضل السامرائي على وفق منهجه في هذا الكتاب يمكننا أن نجد الدقة والحذاقة اللغوية التي تستند إلى قواعد ونظريات وأنظمة علمية مشتملة على جميع عناصر التركيب ومستهدفة في كل ذلك المعنى الكامن وراء التركيب.

ونرى المفهوم اللساني العربي واضحًا جليًا في فكر(أحمد عبد الستار الجواري) فهو يعالج قضية النحو ونظم الكلام، ويرى أنه أتى على النحو العربي حين من الدهر كُسِفَ فيه شعاعه إذ يقول: (إنَّ مما يُحتاج إليه، لإحياء النحو أو تجديد حياته، تجاوز الظواهر فيه إلى الجواهر والحقائق ومواضع الإشراق ومواطن العبقرية والإبداع، تلك التي جعلت العربية تتفرد بخصائص ومزايا في **حسن التعبير عن الأفكار والمشاعر**، تعبيرًا يتراوح بين الإيجاز المفيد غير المُخِل، والإسهاب المصيب غير الممل، ونظمًا تترابط فيه أجزاء الكلام ترابطًا يكون في خدمة **المعاني والأفكار)**[١٤]. ونجد أن الجواري قد جسد تلك المفاهيم اللغوية العامة في مفاصل النحو العربي وجزئياته إذ يقول في تناوله لموضوع العامل: (فالبحث في عوامل الإعراب وفي أسباب ظواهره ليس عملًا عقيمًا على الإطلاق، ولا هو معدوم الفائدة بحد ذاته، ولكنه يكون كذلك إذا انحرف عن طبيعة الدراسة اللغوية ، وأهمل أصولها، **واشتغل بالتعليل المنطقي المجرد الذي لا يرتبط بواقع اللغة ولا يستند إلى طبيعة تركيبها والتعبير بها)**[١٥]. ففي هذا النص تتبين عندنا الرؤية الواسعة والشاملة لمفهوم اللغة وربطه بالأفكار والمعاني والمكنونة في ذهن المتكلم وعدم النظر إلى اللغة على أنها مجموعة من القوانين الرياضة الصِرفة التي تنظم الأصوات والألفاظ فحسب. وهذا ما يؤكده الجواري في حديثه عن الفعل المضارع وفلسفته الزمنية في المنظور اللغوي العربي إذ يقول:(وزبدة القول إن تقسيم الفعل إلى ماضٍ ومضارع وامر لم يقصد به أساسًا إلى التفريق بين هذه الأقسام بحسب أزمان

وقوعها، بل ليس هذا التقسيم هو الوسيلة أو الأداة التي اصطنعتها العربية للدلالة على معنى الزمن في الفعل، بل إن معاني الزمن في الفعل لأوسع وأدق مما يدل عليه هذا التقسيم. وإن المعاني لتتداخل في هذا التقسيم بحيث يكون المضارع أحيانَا صالحًا للدلالة على معنى المضي حين تسبقه أداة بعينها ك(لم، ولما) ..... وقد يكون الماضي صالحًا للدلالة على معنى الحال أو قريبًا من الحال، إذا أُريدَ بذلك معنى التحقيق).[١٦]

ويبدو الفكر اللساني والتنظير اللغوي بأعمق مفاهيمه واضحًا في هذا النص، فهو يركز على قضية السياق التي تحدد الدلالة المتوخاة من التركيب، فأزمنة الأفعال ليست ثابتة ولا يوجد لها صورة واحدة، بل إن السياق اللغوي بجزئياته هو من يحدد المعنى المراد من هذا الفعل أو ذاك. ومما سبق يمكننا القول إنَّ تلك المحاولات والبحوث التي جاء بها هؤلاء النحاة واللغويون إنما تعبر في مضامينها عن نظرة لسانية عربية خالصة قد أغفلها الكثيرون وأرادوا استبدال اللسانيات الغربية ومناهجها ومصطلحاتها بها، والسبب في ذلك؛ أنَّ أغلب دعاة التيسير والتجديد لم يجتمعوا بإطار محدد ولم يؤطروا جهودهم هذه بعنوان معين وبقيت تلك الجهود مشتتة بشكل منفرد ومتناثرة في مختلف البلدان العربية في مختلف المدارس، وهذا عكس ما جاء به (اللسانييون الغربيون) الذين أفادوا من الثورة العلمية الكبيرة في بلدانهم ووضع كل علم وكل جهد في دائرة محددة المعالم ومعروفة التوجه فها نحن نجد (مدرسة براغ ومدرسة كوبنهاكن والبنيوية والوصفية والتجريبية... وغيرها) كل تلك المؤسسات والتجمعات كفيلة بحفظ حقوق علمائها وانتشار بحوثهم وتجاربهم في مختلف البلدان وعلى مر الزمن، فالباحثون العرب وبتجاربهم الفردية تلك لم يستطيعوا تقديم درس لساني عربي متكامل المعالم وواضح التوجه، إلا أن هذا لا يعني أن تلك المحاولات والتجارب لم تأتِ بجديد على مستوى الدرس اللساني العربي الحديث الذي يقف بالقبال من اللسانيات الغربية ومدارسها.

فلو أنعمنا النظر في الهدف الرئيس الذي تشكلت من أجله النظريات اللسانية في المدارس الغربية نجده يتمحور حول إيجاد أنظمة لغوية شاملة يمكنها أن تؤدي الغرض من تداول الكلام واللغة بين الناس. فاللغة عندهم عبارة عن مجموعة من العلامات اللغوية يرتبط بعضها ببعض

بشبكة من العلاقات لا ينعزل فيها عنصر عن آخر داخل هذا النظام، فالنظام اللغوي يتألف من عناصر داخلية وخارجية. [١٧]

فالدرس اللغوي العربي قديمه وحديثه لم يخرج عن المنظور اللساني للغة وعلاقاتها. فجملة **(ما أحسن موسى)** في حالتها المنطوقة وليست المكتوبة المُشَكَلة (فضلاً عن عناصرها الداخلية التركيبية) فالسياق الخارجي للمتكلم هو من يبين دلالتها عند السامع فمرة هي تعجب، ومرة استفهام ، وأخرى نفي، وهذا لا يمكن التفريق بينه إلا من خلال السياق الحالي المصاحب لخروج الجملة من فم المتكلم ومن عناصر هذا السياق(النبر، ودرجة الصوت، وحالة المتكلم وما يحيط به) ولمن خبر التراث لعلمائنا من النحاة واللغوين يتبين له أنهم لم يغفلوا هذه النظرة الكلية الجامعة المانعة للغة وخير دليل على ذلك هو السفر الأول للنحو العربي(الكتاب) الذي جمع بين دفتيه أهم علوم اللغة ولم يغفل أيّا منها إيماناً منه ومن جاء بعده بضرورة توحيد الجهود اللغوية في خدمة التركيب الذي يؤدي إلى وضوح في الدلالة وفهم للمعنى.

ثالثًا: مواضع الالتقاء والافتراق بين الميسرين العرب واللسانيين الغربيين.

يتفق جميع العلماء والباحثين من القدامى والمحدثين بمختلف مدارسهم والمناهج اللغوية التي يؤمنون بها، على أن اللغة وسيلة للتواصل بين أبناء الجنس البشري لغرض تحقيق التفاهم والتعايش والتعبير عن الحاجات والأفكار الذهنية بطريقة صوتية تعتمد الكلام مادة لها لتحقيق هذا الهدف، وبعد انتشار المفاهيم اللسانية الحديثة (علم اللغة) ووصولها إلى الباحثين العرب واطلاعهم عليها في الجامعات الاوربية والامريكية ودخول تلك الكتب والمؤلفات إلى المؤسسات التعليمية من جامعات ومدارس في البلدان العربية، ظهر تيار واسع من اللغويين العرب يدعو إلى تبني تلك النظريات والمناهج وتطبيقها على اللغة العربية كما هي، دون زيادة أو تعديل أو نقد لها، قابلهم في دعوتهم هذه تيار يناصر القديم ويتعصب للتراث اللغوي الموروث من علمائنا القدامى وبين هذا وذاك حدث صراع بين جيلين من اللغوين العرب ولم يستقر بهم الحال على حلول وسطى تبعد ما هو دخيل على لغتنا وتستثمر ما هو نافع من

نظريات متطورة في النظر إلى اللغة البشرية بصورتها الكبيرة التي تشمل كل أبناء الجنس البشري على المعمورة، وبالاطلاع على تجربة الفريقين من اللسانيين والميسرين يمكن لنا الخروج بنقاط اتفاق بينهم.

أولا: يتفق الجميع(الميسرون العرب واللسانييون الغرب) على أن اللغة وسيلة للتواصل والتفاهم بين الامم والشعوب، كما أن لتلك اللغات مجموعة من القوانين والأنظمة التي تواضع عليها أبناء المجموعة الواحدة فيما بينهم فطريًا من دون أي اتفاق مسبق لغرض استعمال تلك اللغة للتفاهم والتعبير فيما بينهم.

ثانيًا: ويتفق الطرفان على أن اللغة عبارة عن مجموعة من الأصوات تصدر عن المتكلم ليستقبلها السامع وينتج عن تلك العملية الفيزيائية فعل معين ناتج عن وصول دلالة معينة يقصدها المتكلم وتكون راسخة مسبقًا في ذهن سامعها، ويُقِرُّ الفريقان بأن اللغة والكلام ليست مادة واحدة وإنما هي مجموعة من الجزئيات التي تجتمع في تركيب واحد للخروج بفكرة محددة يقصدها المتكلم، وتتكون تلك الجزئيات من(مفردات، وأصوات، وتركيب، ومعنى) كل ذلك يجب أن يأخذه المتكلم بنظر الاعتبار وبعناية كبيرة لعدم الاخلال بسياقات اللغة التي يقرها العقل والمنطق اللغوي عند البشر.

ثالثًا: يتفقون على عدم جدوى الدراسة في مجال (نشأة اللغة) ومدتها الزمنية وأي لغة هي الأصل بين اللغات فهذه الدراسة لا تستند إلى مدونات أو مخطوطات توثقها كما إنها لا تملك المقومات العلمية والنظرية التي تنطلق منها، بل تظل في دائرة التخمين والشك والتكهنات الفردية التي تتغير مع تغير الزمن والجغرافية، ولاشك أن تلك الدراسات تنفع في جانب تاريخي ومن ناحية البحث عن علاقات وروابط تربط اللغات المختلفة لغرض المقارنة فيما بينها كما هو حاصل في اللغات(السامية، والهندو أوربية).

وبعد توضيح الجانب الذي يتفق عليه(الميسرون واللسانييون) الذي يُشكل جزءاً مهمًا وحجر أساس في طريق اللغة وتطورها عبر الزمن وعدم الرضوخ للقديم بشكل متعصب غير قابل للنقاش أو التعجيل والإضافة، نبين هنا جوانب الاختلاف بين المنهجين وبين العلماء والباحثين من الفريقين.

أولا: إنَّ أهم نقطة يدور حولها الاختلاف بينهم هي الغاية التي وجدت من أجلها اللغة والهدف الكامن وراء الكلام وأصواته، فاللسانيون الغربيون بمختلف مناهجهم ومدارسهم لم يتفقوا على غاية واحدة تقف وراءها اللغة والكلام فكل واحد منهم نظر إلى اللغة من منطلقات خاصة به على صعيد الفكر والبيئة والعلوم التي تلقاها فمنهم من يربط اللغة بعلم النفس ومنهم من يربطها بعلم الاجتماع وآخر بعلم (الأنثروبولوجيا) مما يجعل تلك العلوم تُدلي بقناعاتها على اللغة من دون الاهتمام باللغة بوصفها كياناً مستقلًا بذاته ينتفع ويتأثر بالعلوم الأخرى ولكنه يحتفظ بخصوصيته اللغوية المنفردة. فاللسانييون يعرفون اللغة ويحدون الكلام بحدود مختلفة تكاد يُقاطع بعضها بعضًا، فالمدرسة الوظيفية ورائدها (جاكبسون)ينظرون إلى اللغة على أنها نسق لغوي يؤدي مجموعة من الوظائف منها وظيفته التواصلية بين أبناء الجنس الواحد وأن هدف اللغة هو تلبية حاجات التواصل لدى المتكلم وكيفية استعمال الجمل والتراكيب لتأدية هذا الغرض بصورة تامة.[١٨] في حين يرى أصحاب المنهج التجريبي في المدرسة السلوكية أن اللغة (مادة) قابلة للملاحظة المباشرة وخاضعة للتجريب ولا علاقة للحدس والذهن في تفسير الظواهر اللغوية، كما دعوا إلى الابتعاد عن دراسة المعنى؛ لأنه يشكل عقبة في طريق تحليل السلوك اللغوي للمتكلم فهذه المدرسة تؤمن بأن قواعد اللسان يجب أن تكون وصفية لا معيارية.[١٩]

ويرى تشومسكي صاحب المدرسة (التوليدية التحويلية): (أنَّ المادة اللسانية وسيلة لا غاية في ذاتها، فهي الوسيلة إلى الوصول إلى التعرف على العقل البشري وكيف يعمل لأنه مادام العقل البشري هو مصدر التفكير، ومصدر القواعد اللسانية المستظهرة التي يجيدها كل مولود في لسانه، فلا بد من التعرف على طريقة اكتساب هذا العقل للمعلومات)[٢٠]

وبعد هذه المفاهيم والتعريفات التي جاء بها اللسانيون نجد أن الاختلاف واضح في وضع مفهوم جامع مانع (للغة) والغرض من دراستها وتحليلها، فمنهم من ينظر إليها من ناحية الشكل والتركيب الظاهري للجمل وللكلام وسياق الحال الذي تشكلت به هذه الأصوات على نحو بعينه، ومنهم من يذهب أبعد من ذلك ليعد اللغة وسيلة الغاية منها المعنى والدلالة وطريقة تكوين التراكيب المختلفة في العقل البشري.

أما علماء العربية قديمًا فقد عرَّفوا اللغة كما يقول ابن جني(٣٩٢هـــ) بأنها: (أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم).[٢١] وكلمة (أصوات) يعني بها هنا أنّ المادة التجريبية للمفهوم الكلامي تبدأ مع وجود هذه الأصوات، وكلمة(يُعبر) دلالة على أن اللغة ليست مستهدفة بذاتها إنما بقصد الإفهام وأغراض التواصل، والتعبير هو جوهر اللغة ومحورها، وكلمة (كل قوم) يعني بها هنا أن كل مجموعة وكل أُمة لها لغة خاصة بها وهذا دليل واضح على اطلاعهم على لغات أعجمية أخرى ومعرفة تجاربهم اللغوية، وكلمة(أغراضهم) وظيفة أخرى يراها ابن جني تضطلع بها اللغة زيادة على وظيفتها في التواصل وهي التعبير عن الحاجات الفطرية والغرائزية والفكرية المرتبطة بالذهن والحدس.

ويرى ابن خلدون في وصفه للغة، أنها عبارة المتكلم عن قصده، وأنَّ تلك العبارة من فعل اللسان، ولابد أن تكون ملكة مستقرة في العضو الفاعل لها وهو اللسان وهو في كل أُمة بحسب اصطلاحاتهم، إذ يقول: (اعلم أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده. وتلك العبارة فعل لساني ناشئ، عن القصد بإفادة الكلام، فلابد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها، وهو اللسان. وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم. وكانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك أحسن الملكات وأوضحها إبانة عن المقاصد، لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعاني، مثل الحركات التي تعين الفاعل من المفعول من المجرور أعني المضاف، ومثل الحروف التي تفضي بالأفعال أي الحركات إلى الذوات من غير تكلف ألفاظ أخرى. وليس يوجد ذلك إلا في لغة العرب. وأما غيرها من اللغات فكل معنى أو حال لا بد له من ألفاظ تخصه بالدلالة، ولذلك نجد كلام العجم في مخاطباتهم أطول مما نقدره بكلام العرب. وهذا هو معنى قوله صلى الله عليه وسلم:" أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً ". فصار للحروف في لغتهم والحركات والهيأت، أي الأوضاع، اعتبار في الدلالة على المقصود غير متكلفين فيه لصناعة يستفيدون ذلك منها. إنما هي ملكة في ألسنتهم يأخذها الآخر عن الأول كما تأخذ صبياننا لهذا العهد لغاتنا).[٢٢] ومن هذا الحدّ للغة عند ابن خلدون يتضح أن اللغة عندهم عبارة عن منهج ومفهوم وأنظمة للتفكير والتعبير والاتصال، وتجاوز النظرة السطحية للغة التي تعتمد التركيب وشكله المتكون من جزئيات متعددة إلى الكشف عن ماهية اللغة وجوهرها وبنيتها العميقة المتصلة بالفكر والذهن والمعنى كوحدة متكاملة يعبر عنها

بالأصوات وعن طريق الكلام الذي يختص به كل أُمة وكل مجموعة من البشر على ما تواضعوا عليه من أنظمة لغوية وقوانين تركيبية وصوتية لفهم بعضهم بعضًا.

وبالتدقيق والتمحيص لهذين المفهومين (للغة) ومفهومها عند قدماء العرب يتبين لنا الفهم الواعي والإدراك الواسع لمفهوم اللغة وتجاوز مسألة التواصل بوصفه الغاية من وجود اللغة، بل ربطها بالوجود العقلي والتفكير الذهني المتطور الذي ينشأ عنه تكوين الجمل والعبارات التي لا تنتهي بحدود بعينها لغرض التعبير عما يجول في ذهن المتكلم من حاجات ورغبات وأحاسيس فطرية ومكتسبة، فهم بذلك تجاوزا (منذ نشأة اللغة العربية ووضعها في قوالب وقوانين معروفة للمحافظة عليها) كل المفاهيم والحدود التي فسرت اللغة على أنها عبارة عن أصوات لغرض التواصل وفسروها بشكل علمي دقيق خاضع للنظرية والتطبيق في آن واحد مما لا يدخله الشك. ونجد في هذه المفاهيم اللغوية القديمة نظرة ثاقبة وبحثًا واعيًا لمفهوم اللغة بشكلها العام واطارها النظري الشمولي الذي يرتبط به كل أبناء الجنس البشري لما تشكله اللغة من أهمية بالغة في التواصل والتعبير عن الإدراك الواعي للفرد المتكلم، وليس كما يتهم بعضهم التراث اللغوي بأنه درس نحوي صِرف منعزل عن بقية العلوم الانسانية وليس للنحاة إلا التركيب وإعراب أواخر الكلمات، فتجربة النحاة القدامى واللغويين العرب كفيلة بتقديم منهج متكامل وتعريف واضح ونظام بُيِّن (اللغة) وماهيتها.

أما العرب حديثًا فقد عرفوا اللغة وخبروها بما ورثوه من مفاهيم وأنظمة لغوية متطورة منذ نشأة اللغة العربية في الجزيرة العربية وانتشارها في اصقاع العالم بعد ذلك، يقول الدكتور تمام حسّان: (لابد أن يكون المعنى هو الموضوع الأخص ... لأن كل دراسة لغوية... لابد أن يكون موضوعها الأول والأخير هو المعنى وكيفية ارتباطه بأشكال التعبير المختلفة ، فالارتباط بين الشكل والوظيفة هو اللغة وهو العرف وهو صلة المبنى بالمعنى، وهذا النوع من النظر إلى المشكلة يمتد من الأصوات إلى الصرف إلى النحو إلى المعجم إلى الدلالة ويتم ذلك أحيانًا بإطراء القديم والإشادة به، وأحيانًا أخرى باستبعاده والاستبدال به ، وأحيانًا بالكشف عن الجديد الذي لم يُشر إليه القدماء....).[٢٣]

تُعد تجربة تمام حسّان من التجارب الرائدة في مجال اللسانيات العربية الحديثة، فهي تجربة واعية مدركة لطبيعة اللغة العربية وما تتمتع به من خصوصية تجعلها تنفرد بأنظمة وقوانين تركيبية ومفاهيمية لا تشاركها فيها غيرها من اللغات الأخرى على الرغم من اشتراكها مع تلك اللغات بخصائص وأصول مشتركة ترجع إلى نظريات نشأة اللغة وعلم اللغة المقارن، كما يمكن ملاحظة المنهج الوصفي الذي يركز على معالجة قضية الدلالة وارتباط المعنى بالمبنى في جميع كتب تمام حسّان. يقول تمام حسّان في حديثة عن المزواجة بين المدارس الفكرية واللغوية التراثية وعلم اللغة الحديث: (وتشعبت المسالك أمام الشعب....فوجد أمامه طريقًا يقوده إلى التراث العربي الخصب، ورأى أنه لو بعث هذا التراث وأحياه لكان دافعًا لعزة جديدة لا تقل روعة عن التاريخ العربي نفسه، ووجد أمامه طريقًا في المستقبل معالمه ما في أيدي الأمم من علوم ومعارف... ففضل أن يأخذ بنصيب من التراث العربي... ونصيب من الثقافة المعاصرة).[٢٤] بهذا القول تظهر لنا النزعة التي تبناها في جميع مؤلفاته معتمدًا على الأصول والحداثة في تفكيره اللغوي وتحليله اللساني المتميز.

ولا تقل أهمية الدكتور فاضل السامرائي عن سابقه في المنهج اللغوي والحدس الكلامي في جميع ما كتب وألف من كتب وبحوث ومحاضرات ولاسيما في كتابه معاني النحو فمن عنوان الكتاب يتضح لنا مدى تركيزه على قضية المعنى مستعينَا في الوصول إليها بالتركيب وما يحويه هذا التركيب من عناصر صوتية ومعجمية وصرفية ودلالية، كما أن السامرائي يحاول أن يجمع بين مناهج متعددة على اختلافها في هذا الكتاب، من منهج وصفي إلى معياري إلى تاريخي إلى مقارن وإن لم يصرح علنَا بذلك في طيات كتابه ، لكن من خَبِر النحو العربي وغاص في بحره قادر على استقراء ذلك من خلال التحليل اللغوي الدقيق والقراءة الواعية للنصوص العربية والنظر إليها بشكل متجانس بحيث لا يمكن فصل الشكل عن المضمون الذي هو غاية اللغة والكلام.

ثانيًا: الخلاف في استعمال المصطلح فطالما أخذت تلك المناقشات والمناظرات مأخذها من الدرس اللساني الغربي ومحاولة بعض الباحثين العرب اسقاط تلك المصطلحات على الدرس اللغوي والنحوي العربي على الرغم من عدم تقبل المؤسسات التعليمية العربية أغلب تلك

المصطلحات لأسباب متعددة منها: الغرابة (المعجمية) لتلك المصطلحات من قبيل(المورفيم والفونيم والصوتيم واللفاظم والبنية السطحية والعميقة والرأسي والعمودي والمورفولوجي والفونولوجي والتداولية والنصية... وغيرها الكثير) والسبب الآخر في عدم تقبل تلك المصطلحات ورفضها هو أن تلك المصطلحات وضعت للغات بعينها لم تكن العربية من ضمنها كما أن اللغة العربية لغة اشتقاقية ولادة وغنية بإيجاد مفردات تناسب هيكل اللغة العربية وتؤدي الغرض الذي تقوم به (المصطلحات اللسانية الغربية) مما شكل جزءًا من مشكلة التصادم بين الدرس اللساني الغربي وبين المجددين والميسرين العرب.

ثالثًا: التباين بين المناهج المعتمدة في دراسة اللغة، فاللسانيون أخذوا يعتمدون منهجًا بعينه في دراسة لغة أو لغات متعددة مثل(المنهج الوصفي أو البنيوي أو المعياري أو المقارن أو التاريخي) مما شكل عندهم مشكلة في أن منهجًا واحدًا من تلك المناهج لا يفي بالغرض في معرفة اللغة وماهيتها وأنساقها وأنظمتها مما حدا بهم في استبدال تلك المناهج ومحاولة المزواجة فيما بينها لغرض الخروج بنظرية لغوية متكاملة تستطيع الإحاطة بالمفهوم اللغوي اللساني بشكله المطلوب. فيما نجد أن البحث اللغوي عند العرب (قديمًا وحديثًا) لم يهمل أيًا من تلك المناهج في كتبه ومؤلفاته وقواعده التنظيرية والتطبيقية لعلمه بضرورة المُلاقحة بين جميع المناهج اللغوية لغرض فهم اللغة كمفهوم (مجرد) بشكل علمي ودقيق يعتمد الانفتاح على المناهج بمختلف اتجاهاتها.

لقد كان الجهد (اللساني) العربي على مَرِّ الزمن جهدًا متميزًا ومثمرًا امتدت حلقاته منذ بدء النشأة الأولى للدرس النحوي في البصرة على يد الخليل(١٧٥هـــــــ) ومن بعده تلميذه سيبويه(١٨٠هـــ) ففي جميع مؤلفاتهم وما وصل إلينا من آثارهم وجهودهم لم يغادروا شيئًا مما له علاقة بالنية اللغوية من جانبيها الشكلي والوظيفي بدءًا بالاهتمام بمخارج الأصوات لما تمثله من مادة جوهرية في تكوين اللغة ومن بعدها علم الصرف الذي يُعَدُّ من وجهة نظرهم اللغوية هو البنية الأساسية التي ينتج عن تنسيقها وضبطها جملًا وتراكيب لها معنى دلالي واضح، ولم ينتهِ تفكيرهم اللغوي عند هذا الحد، إنما أعطوا للتركيب أهمية استثنائية عن سابقاته لما يمثله من صورة متكاملة تجتمع بها جميع عناصر اللغة ومقوماتها، وجعلوا

الإعراب دليلاً عليها كنتيجة لذلك، وبعد هذا كله تطور الدرس الدلالي(النصي) وكتبت فيه الكتب والمؤلفات وصبوا جل اهتماهم في قضية المعنى بعد أنْ أدركوا أنَّ الأنظمة النحوية والصرفية والمعجمية والصوتية قد وصلت إلى حد النضج والتكامل الذي لا يخذل من التزم به وعُنِي بفهمه في خطابة أو كتابة أو رسالة أو وصية أو حلقة درس، وكان خير من بيَّنَ هذا الجانب المشرق من علم النحو علماء كبار لهم أثر واضح في اللغة ومسيرتها منهم: (الجاحظ"٢٥٥هـ"_ وعبد الجبار المعتزلي"٣١٢هـ"_ وعبد القاهر الجرجاني٤٧١هـ) فمؤلفاتهم التي تناولت قضية المعنى كفيلة ببيان الجهد(اللساني العربي) آنذاك ونظرته العميقة للغة كمفهوم مجرد لا ينحسر في حدود بعينها من نحو أو صوت وغيرها من العلوم العربية، وقد جاء العرب من المحدثين حاملين معهم أعباء اللغة في عصرنا الحاضر وتأثير اللغات الأجنبية والأفكار والمناهج الغربية وتداخل العلوم فيما بينها، كل تلك المشكلات وضعت اللغويين العرب أمام مسؤولياتهم بالنهوض باللغة العربية وانتشالها من واقعها الذي تعيشه.

وبعد ظهور اللسانيات الغربية ومناهجها ووصولها إلى مؤسساتنا التعليمية عن طريق المستشرقين والبعثات ووصول تلك المؤلفات إلى البلدان العربية، أراد بعض الباحثين تطبيق تلك النظريات اللسانية _ وما تتبعه من مناهج ومصطلحات_ على اللغة العربية وعلومها من دون قيد أو شرط، إيمانًا منهم بعدم قدرة اللغة العربية على استيعاب الفكر اللغوي بشكل تام وعدم اهتمامها بمفهوم(اللغة) بعالميتها وما تشمله من أقوام وشعوب، وهذا نابع من نظرتهم السطحية التي عرفوا بها اللغة العربية والفكرة السائدة بأنَّ اللغة العربية هي(النحو) وهمها هو إعراب أواخر الكلمات فقط، إلى أن تصدى لتك الحملة علماء أفذاذ خَبِروا اللغة العربية وتعرفوا فلسفتها وأحاطوا بها وبتراكيبها ودلالتها وما تمثله من قيمة عليا في التواصل والتعبير عن حاجات المجتمع، كل بحسب زمانه ومكانه. فكتبوا في ذلك وألفوا واضعين أسسًا(لسانية عربية) خالصة أفادت من الدرس اللساني الغربي لكنها لم تسقطه على اللغة العربية بسبب التباين والتباعد بين لغتنا وما وضع من مناهج لدراسة لغات أعجمية لا تشارك عربيتنا بشيء. وكذلك لم يستعملوا المصطلحات اللسانية واللغة الجوفاء التي جاءت بها المدارس الغربية، بل

استبدلوا بها مصطلحات تناسب اللغة العربية محققة الهدف عينه الذي وضعت من أجله وكل ذلك بلغة مفهومة سائغة بعيدة عن لغة(التعمية) التي تستعملها اللسانيات الغربية.

إنَّ النظر إلى(اللغة) بنظرة مجردة ومن ثم الغوص في جزئياتها وتراكيبها والاهتمام بالنشاط اللساني ومفاهيم الدلالة والمعنى وعالمية اللغة وما تستهدفه اللغة من تحقيق للتواصل والتفاهم بين أبناء البشر والتعبير عن حاجاتهم عن طريق نظام صوتي وتركيبي ومعجمي يحقق ذلك، كل هذه المفاهيم والنظريات لم تكن غائبة عن المحدثين من علماء العربية وقد أحاطوا بها واوفوا حقها.

إنَّ ما تعانيه اللغة العربية من مشكلات وعقبات تتمثل في النظر إلى علومها المختلفة بشكل منفرد وعدم تناول تلك العلوم وتعليمها على أساس أنها كل مترابط متجانس له في النهاية وظيفة واحدة وهي التعبير عن المعنى والدلالة التي يروم المتكلم ايصالها للطرف الآخر. كل هذه العقبات لم يكن مصدرها الدرس اللغوي العربي القديم أو المؤلفات والتراث النحوي الذي وصل إلينا، إنما تكمن المشكلة في طريقة تعليم الدرس اللغوي العربي وطريقة تناوله في المؤسسات التعليمية من مدارس وجامعات وترسيخ فكرة أن النحو لا يمت بصلة إلى علم الصرف ولا دخل لعلمي الصوت والمعجم بهما وهكذا سادت هذه الفكرة على مختلف الأجيال. ولم يستطع معلمو اللغة العربية تقديم درس شامل جامع يعبر عن لغة رصينة جوهرها المعنى وشكلها التركيب، وما بين هذا وذاك يبدع المتعلم في فهم علوم العربية بشكل تام. ونتيجة لتلك العقبات ظن من ظن أن اللسانيات الغربية هي البديل الناجح في تقديم درس عربي حديث متناسين في ذلك عدم امكانية اسقاط تلك المناهج والنظريات والمصطلحات على اللغة العربية لأن واضعيها لم يدر في ذهنهم أن أفكارهم اللغوية سوف تطبق على اللغة العربية، بل كان هدفهم هو لغاتهم التي يتكلمون بها وما يجاورهم من اللغات الأخرى والبحث عن أصولها في العهود الماضية وما تشكله من علائق مع لغاتهم الحالية، لذا يُعَدُّ التوجه إلى ترصين (علم اللغة) أو (**لسانيات عربية**) مستقلة بنظام خاص بها له أفكاره وأنظمته ومصطلحاته المستقلة مستعيناً بذلك بالدرس اللساني الغربي وما وصل إليه من تطور في البحث والتنظر والتطبيق،

من دون نسخ تجربتهم على اللغة العربية لما تمثله كل لغة من خصوصية وهيكل لا يشبهها به أحد من اللغات الأخرى وإن وجدت بعض الروابط بين هده اللغة وتلك.

الهوامش:

١- علم اللغة العام: ٢٧

٢- الخصائص: ٦٧

٣- ينظر: مدارس نحوية ولغوية عربية وغربية: ١٧٣-١٧٦

٤- دلائل الإعجاز:٢٥

٥- أفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي: ١٢٦

٦- الكتاب:١/٢٤

٧- ينظر: النحو عند الميسرين: ٢٤- ٣١

٨- رفاعة الطهطاوي ووقفة مع الدراسات اللغوية الحديثة: ١٢

٩- ينظر: النحو عند الميسرين: ٣٤

١٠-ينظر: النحو عند الميسرين: ٤٤-٤٥

١١- ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها:٦-٧

١٢- ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها: ٨٢-١٧٧

١٣- معاني النحو:١/٨

١٤- نحو المعاني:١٩

١٥- نحو التيسير:٤٩

١٦- نحو الفعل :٣٢

١٧- ينظر: مدارس نحوية ولغوية عربية وغربية: ١٨٨

١٨- ينظر: مدخل إلى اللسانيات:١٧

١٩- ينظر: مدخل إلى علم اللغة :٣١٤

٢٠ - النحو في القديم والحديث:٧

٢١- الخصائص: ١-٦٧

٢٢- مقدمة ابن خلدون: ٧٥٣-٧٥٤

٢٣- اللغة العربية معناها ومبناها:٩

٢٤- مناهج البحث في اللغة:٤

المصادر والمراجع:

- آفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي- أحمد المتوكل-دار الهلال العربية- ط١- ١٩٩٣م.

- الخصائص- ابو الفتح عثمان بن جني-حققه، محمد علي النجار-عالم الكتب-بيروت- ط٢-٢٠١٠م.

- دلائل الإعجاز- أبو بكر عبد القاهر الجرجاني(٤٧١ه)-تحقيق، د. محمد التنجي- دار الكتاب العربي-بيروت-ط١- ١٩٩٥م.

- رفاعة الطهطاوي ووقفة مع الدراسات اللغوية الحديثة- د. البدراوي زهران-مطابع سجل العرب- ١٩٨٣م

- علم اللغة العام- فرديناند دي سوسور- ترجمة د.ئوئيل يوسف عزيز، مراجعة النص العربي د. مالك يوسف المطلبي- دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل-١٩٨٨

- الكتاب: لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر(١٨٠ه)- تحقيق وشرح، عبد السلام محمد هارون- مكتبة الخانجي- القاهرة- ط٥ -٢٠٠٩م.

- اللغة العربية معناها ومبناها- د. تمام حسان- عالم الكتب- القاهرة- ط٥ – ٢٠٠٦م.

- مدارس نحوية ولغوية عربية وغربية- د. صبري إبراهيم السيد- مكتبة الآداب- القاهرة-٢٠١١م.

- مدخل إلى اللسانيات- د. محمد يونس علي- دار المتاب الجديد المتحدة- بيروت- ط١- ٢٠٠٤م.

- مدخل إلى علم اللغة – د. محمد حسن عبد العزيز- دار النمر للطباعة- ١٩٩١م.

- معاني النحو- د. فاضل صالح السامرائي- شركة العاتك لصناعة الكتب- القاهرة- ط٢- ٢٠٠٣م.

– مقدمة ابن خلدون– لعبد الرحمن بن خلدون(٨٠٨هـ)–ضبط ومراجعة، الاستاذ خليل شحادة وسهيل زكار– دار الفكر للطباعة والنشر– بيروت، لبنان–٢٠٠١م.

– مناهج البحث في اللغة– د. تمام حسان– مكتبة الانجلو المصرية– ط٢– ١٩٩٠م.

– نحو التيسير– د. أحمد عبد الستار الجواري– المؤسسة العربية للدراسات والنشر– بيروت– ٢٠٠٦م.

– نحو الفعل – د. أحمد عبد الستار الجواري– المؤسسة العربية للدراسات والنشر– بيروت– ٢٠٠٦م.

– نحو المعاني– د. أحمد عبد الستار الجواري– مطبعة المجمع العلمي العراقي– ١٩٨٧م.

– النحو عند الميسرين: د. فائز عبد الملك محسن–مكتبة اليمامة للطباعة والنشر–بغداد– ٢٠١٥م.

– النحو في القديم والحديث– د. محمد محمود غالي– ناشرون– لبنان– ط١– ٢٠٠٤م.